الفصل الأول
استبدال الأداة بالأداة

يُعدّ السلوك اللغوي سلسلة مترابطة من المكونات التي لا ينفصم بعضها عن بعض، تسري دلالاتها لتأدية مفهوم تام من خلال علاقات شكلية ومعنوية، وإذا كانت هذه السمة مما تتماز بها الأساليب الرفيعة، فقد برزت في القرآن الكريم بشكل جليّ نابع من مستواه الإعجازي. ومن هذه المكونات الأدوات النحوية التي تشكل لبنة أساسية للربط بين المكونات اللغوية، لأنها تؤدي في كل نصّ وظيفةً لا يمكن الاستغناء عنها، وفي استبدال أداة بأخرى في العبارة القرآنية حكمة بليغة ذات دلالة وبلاغة وقصد، والأدوات فيها كثيرة، ومواضع استبدالها كثيرة أيضاً، مما ستعمل على استعراض وجوهه ووصفها والنظر فيها، وسنبدأ بأقلها دوراناً في متون الآي، ومن الطريف أن يتسق هذا الضابط في فحتها التطبيقية لا في حجومه الإحصائية مع تسلسل الأصوات في بدايات المفاتيح الاصطلاحية التي اتخذناها لتحديد أنواع المستبدلات «الاستقبالية/الإنكارية/التنكيرية»، ثم يكثر الدوران، فتأتي «الجارة/العاطفة/النافية» في فحتها التطبيقية متسقة المصطلحات مع نظام المعجم أيضاً بالاتفاق المحض، بيد أنها مستعصية على العرض الكامل، مما ألجأنا في دراستنا إلى انتخاب الأمثلة دون الاستيعاب.

◄ الاستقبالية بالاستقبالية:

وهما «السين وسوف»، قال تعالى في سورة الشعراء[1]: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ

(1) سورة الشعراء، الآية: 6.

أَنبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، وقال في سورة الأنعام[1]: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، فحلت (سوف) محل (السين) وهما حرفا التنفيس في العربية، يختصان بالفعل المضارع فيخلصانه للاستقبال[2]، ويفيدان الوعد بحصول الفعل، ودخولهما على ما يفيد الوعد أو الوعيد يقتضي توكيده[3]، ولكن «سوف» أشد تراخياً في الاستقبال من «السين»، وأبلغ تنفيساً[4]، وفي الآيتين المذكورتين وعيد للكافرين بالعقاب لتكذيبهم نبوة محمد ﷺ واستهزائهم بالآيات[5]. وذكر (سوف) في إحدى الآيتين يفيد تأخير العقوبات إلى زمن أبعد مما في الآية الأخرى. ولوضع كل من «السين» و «سوف» موضعهما أسباب متعددة، منها:

إن المعنيين في الآية الأولى هم قوم الرسول ﷺ من المشركين خاصة، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾[6]، والمعنى: أشفِقْ

(1) سورة الأنعام، الآية: 5.

(2) ينظر: سيبويه - الكتاب، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، القاهرة، 1988 م، ط 3 (4/ 217؛ 233)؛ ابن يعيش - شرح المفصل، بيروت، د. ت: (8/ 148)؛ رضي الدين الأسترابادي - شرح الرضي على الكافية، تحقيق: يوسف حسن عمر، بيروت، 1978 م، ص: 4/ 29؛ ابن هشام - مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، مراجعة: سعيد الأفغاني، بيروت، 1985 م، ص: 184 - 185؛ السيوطي - همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون وعبد العال سالم مكرم، الكويت1975،م، ص: 4/ 375.

(3) ينظر: مغني اللبيب، ص: 185؛ أبو السعود - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، بيروت، د. ت: (3/ 110)، (6/ 234).

(4) ينظر: الراغب الأصفهاني - المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني، القاهرة، 1961 م، الطبعة الأخيرة، ص: 249، ابن الأنباري - الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، بيروت، د. ت، ص: 2/ 647؛ شرح المفصل: (8/ 148)؛ الزركشي - البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، القاهرة، 1972 م، ط 2، ص: 4/ 282.

(5) ينظر: الطبري - جامع البيان في تفسير القرآن، بيروت، 1978 م: 7/ 95 - 96.

(6) سورة الشعراء، الآية: 3.

على نفسك يا محمد أن تقتلها حسرةً على عدم إيمان قومك[1]، وقوله: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[2]، وهم في الآية الأخرى عموم الكافرين ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[3]، فكان مناسباً تعجيلُ العقوبة لِمَن هم أقربُ إلى الرسول ﷺ من الكفار الذين آذوه، وحاربوه، وكذّبوه قبل الأباعد الذين لم تبلغهم الدعوة بعد، وفي سياق الآية الأولى تسلية للرسول ﷺ بقرينة قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾، فناسب كل ذلك تعجيل التهديد والوعيد. وليس الأمر كذلك في الآية الأخرى، ذكر في سورة الشعراء الأقوام الذين كذّبوا أنبياءهم، وعقوباتهم في الدنيا، فقد ذكر موسى عليه السلام مع فرعون وقومه، ونجاته ومن معه من المؤمنين، وإغراق فرعون وأتباعه: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾[4]، وذكر نوح عليه السلام وإغراق كفار بالطوفان، ونجاته ومن معه من المؤمنين: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾[5]، وذكر هود، وصالح، ولوط وشعيب، وأقوامهم، وما نزل بهم من العذاب لتكذيبهم بهم، فكان مجيء «السين» إشعاراً بتعجيل العقوبة لقوم محمد، كما عجّل لغيرهم من الأقوام البائدة، وليس في الآية الأخرى شيء من ذلك.

إنّ الآية الثانية مبنيّةٌ على تأخير الوعيد والعقوبات، بخلاف الأولى، ويدل على ذلك أن الله تعالى أمر رسوله ﷺ في سورة الأنعام ومن آياتها آية «سوف» أن يقول: إنه ليس عنده ما يستعجلون به من العذاب: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾[6]، فناسب عدم الاستعجال ذكر الأداة

(1) ينظر: الزمخشري - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، بيروت، د. ت (3/ 1094).
(2) سورة الشعراء، الآية: 4.
(3) سورة الأنعام، الآية 1.
(4) سورة الشعراء، الآيتان: 65 - 66.
(5) سورة الشعراء، الآيتان: 119 - 120.
(6) سورة الأنعام، الآية: 57.

المذكورة فيها، فضلاً عن كون التنفيس بالسين لا يلائم الجو العام للسورة كلها، ومن آياتها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾[2] بعد قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[3]، وقوله: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾[4]، وهو جو فيه ما يفهم منه تأجيل العقوبة، بدليل قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[5]، بقرينة ذكر (الرحمة) التي تنافي ذلك التعجيل، وقد ختم هذا كله بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[6]، فالآية لم تؤكد سرعة العقاب كما أكدت المغفرة والرحمة، كما إنّ تأكيد سرعة العقاب بـ(إنّ) وحدها، وتأكيد المغفرة والرحمة بـ(إنّ) واللام ينافي تعجيل العقوبة أيضاً.

والمتأمل في إطار سورة الأنعام يرى فيها قوله تعالى[7]: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، و(ثم) فيه دالة على التراخي والبعد، مقابل الفاء في قوله تعالى في سورة النمل[8]: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ للدلالة على التعقيب[9]، ويتضح من هذا كله أن سورة الأنعام

(1) سورة الأنعام، الآية: 60.
(2) سورة الأنعام، الآية: 62.
(3) سورة الأنعام، الآية: 61.
(4) سورة الأنعام، الآية: 135.
(5) سورة الأنعام، الآية: 12.
(6) سورة الأنعام، الآية: 165.
(7) سورة الأنعام، الآية: 11.
(8) سورة النمل، الآية: 69.
(9) ينظر: الصفحة 66 من هذا الكتاب.

مبنية على تأخير الوعيد والعقوبات، مما يناسبه التعبير بـ (سوف) أكثر من السين ما في سورة الشعراء[10]، لأن إرادة الله جلّ شأنه عظيمة، فهو القادر على الانتقام من الكافرين في أي وقت يشاء، غير أنه يمهل الكافرين رويداً بحسب مشيئته، لعلهم يفيقون من غيّهم بعدما يأتيهم الحق الذي فيه بيان وهداية. فالزمن المستغرق بين وصول الحق وبيانه، وتكذيبه أطول من تكذيبه مباشرةً، مما آلم الرسول ﷺ فيما حكته سورة الشعراء، فأمره الله بأن يُشفق على نفسه ولا يعاتبها، لأن الانتقام من الكافرين عاجل، ولا يفوتنا أن تنوين [بَاخِعٌ] وهو اسم فاعل في آية السورة المذكورة: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[11] يفيد استقبالاً يناسب الاستقبال القريب الذي في قوله: [فَسَيَأْتِيهِمْ]. وبالإمكان عرض الدلالة واتجاهاتها بالصورة الآتية:

● آية سورة الشعراء:

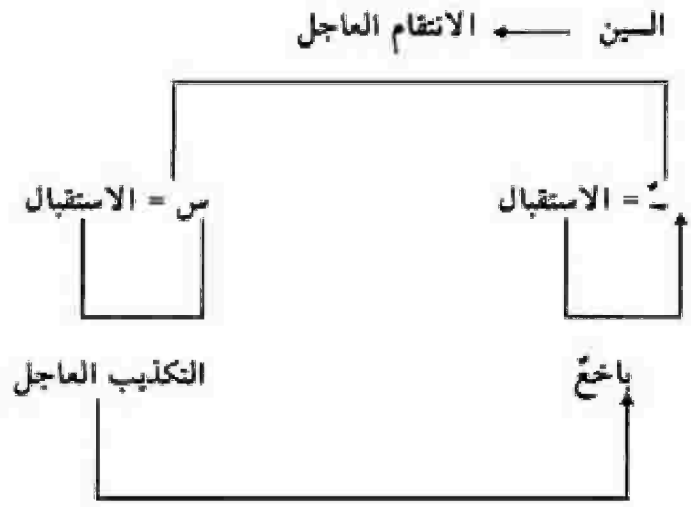

(1) ينظر: فاضل السامرائي - التعبير القرآني، الموصل، 1989 م، ص: 169 - 170.
(2) سورة الشعراء، الآية 3. وينظر: شرح المفصل (6/ 76 - 78)؛ شرح الرضي على الكافية (3/ 415 - 416).

● آية سورة الأنعام:

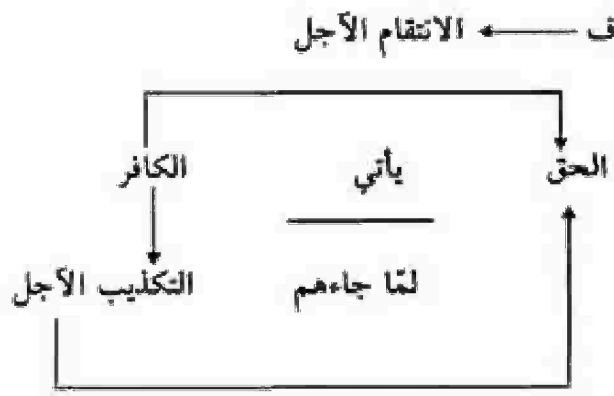

◄ الإنكارية التوكيدية بالمصدرية:

وهما «اللام» و «أنْ» قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[1]. وقال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[2]، فاختلف في اللام المذكورة في قوله: [لِيُطْفِئُوا]، فقيل: إنها للتعليل، والمراد: يريدون أنْ يكذّبوا ليطفئوا نور الله بأفواههم[3]، ولكونها مسبوقة بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ﴾[4]، والتقدير: يريدون افتراء الكذب ليطفئوا نور الله بأفواههم، فالمفعول هنا محذوف، لم يذكر اعتماداً على مضمون الآية المذكورة. وقيل: إن هذه اللام زائدة للتوكيد، قال الزمخشري: «وكأن هذه اللام زيدت مع فعل الإرادة تأكيداً لِما فيها من معنى الإرادة في قولك: جئتُ لإكرامك، كما زيدت

(1) سورة الصف، الآية: 8.
(2) سورة التوبة، الآية: 32.
(3) الخطيب الإسكافي - درّة التنزيل وغرّة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، بيروت، 1977 م، ط 2: 196؛ وينظر: المفردات في غريب القرآن: 305؛ الكرماني - أسرار التكرار في القرآن، دراسة وتحقيق: عبد القادر أحمد عطا، تونس، 1983 م، ط 1: 98.
(4) سورة الصف، الآية: 7.

اللام في لا أبالك تأكيداً لمعنى الإضافة في لا أباك»[1]. وهذا الرأي فيما يبدو أسلم من الرأي الأول، وذلك لأن السياق في سورة الصف في تكذيب النصارى للبشارات بمجيء محمد ﷺ ولمّا كان السياق في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾[2] وارداً لتكذيب النصارى بشارة عيسى عليه السلام بمجيء محمد ﷺ ولتكذيبهم بيّناته على ذلك قصداً إلى إطفاء نور الله، وهو الإسلام[3] الذي دعا إليه، فقد اقتضى الموقف التوكيد باللام[4]. والسياق والموقف في سورة التوبة مختلفان لا يُحتاج فيهما إلى مثل هذا التوكيد، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾[5]. فالسياق هنا ينعى على معتقدات اليهود والنصارى في عزير، والأحبار، والرهبان، فهم

(1) الكشاف: (4/ 99)؛ الفخر الرازي - التفسير الكبير، طهران، د. ت، ط 2 (28/ 314)؛ أبو حيان الأندلسي - البحر المحيط، بيروت، 1978 م، ط 2: (8/ 262)؛ وينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: (8/ 244).

(2) سورة الصف، الآيات: 6 - 8.

(3) ينظر: جامع البيان في تفسير القرآن: 10/ 82، الدامغاني - قاموس القرآن، أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، تحقيق: عبد العزيز سيد الأهل، بيروت، 1980 م، ط 3، ص: 466، ابن الجوزي - منتخب قرة العيون النواظر في الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، تحقيق ودراسة: محمد السيد الطنطاوي وفؤاد عبد المنعم أحمد، الإسكندرية، 1979 م، ص: 229.

(4) فاضل السامرائي - معاني النحو، الموصل، 1991 م (3/ 69).

(5) سورة التوبة، الآيات: 30 - 32.

بادعائهم أن لله ابناً وشريكاً قد جعلوا مع الله آلهة ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ من غير حاجة إلى التوكيد كالحاجة إليه هناك في آيات سورة الصف.

◄ التنوين: بـ«ال» التعريف:

وهما التنوين والألف واللام، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾[1]. وقال: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[2]. فقال: (البلد) و(بلداً) قيل: إنّ دعوة إبراهيم عليه السلام المنقولة إلينا في سورة البقرة قد كانت قبل مصير مكة بلداً، وقبل بناء الكعبة وذلك عند تركه زوجه هاجر وابنه اسماعيل فيه، داعياً ربّه أن يجعل الواديَ القفرَ بلداً: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٖ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾[3]. بيد أن ما ذكر عنه في السورة الأخرى قد كانت دعوته بعد عودته ورؤيته ما صار إليه المكان من مناسبة العيش فيه، فالدعوة الأولى كانت برجاء أنْ يكون القفر بلداً تصحّ به السكنى كما في سائر البلاد، والثانية برجاء أن يبقى البلد آمناً[4] بصورته الجديدة «فعرَّف حين عرَّف بالبلدية، ونكَّر حيث كان مكاناً من الأمكنة غيرَ مشهور بالتمييز عنها من عمارة وسكنى الناس»[5].

---

(1) سورة إبراهيم، الآية: 35.

(2) سورة البقرة، الآية: 126.

(3) سورة إبراهيم، الآية: 37.

(4) ينظر: أسرار التكرار في القرآن، ص: 35؛ التفسير الكبير: (4/ 53 - 55)؛ الغرناطي - ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، تحقيق: سعيد الفلاح، بيروت، 1983 م، ط 1، : (1/ 234 - 235)؛ البرهان في علوم القرآن: (2/ 64 - 65)؛ السيوطي - الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، القاهرة، 1974 م: (3/ 394)؛ السيوطي - معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي، القاهرة، 1973 م: (1/ 89).

(5) درة التنزيل، ص: 29.

ولا عبرة لدينا هنا بمدنية البقرة ومكية إبراهيم، وما فيهما من منافاة ظاهرة لهذا المعنى، لأن زمن الدعوة في المدنية وزمنها في المكية كما أسلفنا مختلفان، وحيث يحكى عن المجهول يُنكر، وحيث يحكى عن المعهود يُعرف، فمكة في سابق عهدها كانت وادياً مجهولاً قفراً غير ذي زرع، وبعد صيرورتها بلداً مسكوناً معهوداً دعت إبراهيم إلى الدعوة لها بالأمن الدائم والاطمئنان، وفي مثل هذا لا يكون التعويل على تاريخ النزول بقدر التعويل على زمن الحدث الداخلي في سياق القصة لحكمةٍ من حكم الإعجاز في العبارة القرآنية.

ومن استبدال التنكيرية بالتعريفية أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة أيضاً[1]: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾، وقوله في سورة آل عمران[2]: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾، فقد قال: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ و﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ لتدل المعرفة في آية البقرة على أن بني إسرائيل كانوا يقتلون النبيين بغير الحق الذي يدعوا إلى القتل وهو الحق المحدد المعلوم الذي أذن الله أن تُقتل النفس به في قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[3]، ولتدل النكرة على أنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق أصلاً، إذ ليس هناك وجه من وجوه الحق يدعو إلى إيذاء الأنبياء فضلاً عن قتلهم، والقصد السياقي الذي يتحقق بالتنكير هو الزيادة في ذمّهم، والعيب على فعلهم أكثر مما

(1) سورة البقرة، الآية: 61.
(2) سورة آل عمران، الآية: 112.
(3) سورة الأنعام، الآية: 151.

في التعريف، والذي يدل على أنّ الزيادة في ذمّهم والعيب على فعلهم في آية آل عمران أكبر منه في آية البقرة أمور، منها:

الجمع دفعة واحدة في آية البقرة بين الذّلة والمسكنة في قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾، والفصل دفعتين في آية آل عمران: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾، فكرّر فعل الضرب، وجيء بحرف الجر «على» للزيادة في التوكيد، فضلاً عن دلالة جمع القلة في آية البقرة: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾، وجمع الكثرة في الآية الأخرى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنۢبِيَآءَ﴾[1]، لأن الجمع السالم يفيد القلة، والمكسّر يفيد الكثرة بما يزيد على العشرة[2].

ولعلّ من حكم الإعجاز أن تقترن المعرفة ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ بقتل العدد القليل من النبيين، وتقترن النكرة ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بقتل العدد الكثير من الأنبياء، لأن كثرة القتل يمكن أن تفشوا فيها كثرة أسباب لا تدخل في مجملها في دائرة الحق لفسادٍ في سلوك القتلة وانحراف في أمزجتهم وأهوائهم.

ومما يدخل في الدائرة التي نحن بصددها من ظاهرة استبدال التنكير والتعريف، قوله تعالى في سورة مريم[3]: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾، وقوله فيها أيضاً[4]: ﴿وَالسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾. والآية الأولى في مدح يحيى عليه السلام بدلالة قوله تعالى في السياق نفسه: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[5]، فقد سلّم الله عليه في هذه المواطن الثلاثة، لأنها أوحش المواطن، ولأن الإنسان يكون فيها في غاية

(1) ينظر: أسرار التكرار في القرآن، ص: 30 - 31؛ فاضل السامرائي - معاني النحو، الموصل، 1989 م: (1/ 118 - 119).
(2) ينظر: شرح المفصل: (5/ 9 - 10).
(3) سورة مريم، الآية: 15.
(4) سورة مريم، الآية: 33.
(5) سورة مريم، الآية: 12.

ضعفه، وحاجته، وقلة حيلته، وقوة فقره إلى الله تعالى [1]، والآية الثانية في قصة عيسى عليه السلام الذي سلّم على نفسه في المواطن الثلاثة نفسها، بدلالة قصة والدته التي بدأت بقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾، وذلك في سورتها[2]، وامتدت حتى آخر القول فيها: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾[3]، وقد قيل: إنّ «أل» في (السَّلامُ) للعهد، ليكون معنى قول عيسى: وذلك السلام الموجّه إلى يحيى في تلك المواطن الثلاثة موجّهٌ إليّ[4] أيضاً. وقال الزمخشري: إنه للجنس، لأنّ هذا التعريف تعريض باللّعنة على أعداء مريم ومتهميها من اليهود، لأن عيسى: حين أراد السلام على نفسه من جنس سلام الله على يحيى خاصةً، فقد عَرّض كما ذكر الزمخشري بأن ضده على أعداء والدته[5]، ويقوى هذا التصور لأن المقام مقام مناكرة وعناد، فقد قال تعالى عن مريم: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾[6]، ثم نقل في آخر القصة من كلام عيسى عليه السلام: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ

(1) ينظر: جامع البيان في تفسير القرآن: (11/ 88)؛ الكشاف: (2/ 504)؛ التفسير الكبير: (21/ 193)؛ القرطبي - الجامع لأحكام القرآن، القاهرة، 1967 م، ج 10، تحقيق: أبي إسحاق إبراهيم أطفيش، ص: 220.

(2) سورة مريم، الآية: 16.

(3) سورة مريم، الآية: 34.

(4) ينظر: أبو البقاء العكبري - إملاء ما منّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، القاهرة، 1969 م، ط 2 (2/ 114)؛ الجامع لأحكام القرآن: (11/ 104)؛ البحر المحيط: (6/ 188)؛ الشوكاني - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، بيروت، 1981 م: (3/ 332).

(5) الكشاف: (2/ 508)؛ التفسير الكبير: (21/ 216).

(6) سورة مريم، الآيات: 27 - 32.

يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾، وكأنه لم يُبقِ لأعدائه وأعداء والدته بعد أن سلّم على نفسه سلاماً من جنس السلام الإلٰهي على يحيى إلّا اللعنَ[1]. ونظير هذا قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام في جداله مع فرعون: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾[2]، بمعنى: ﴿أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[3]، وثمة ملحظ خفيّ يحسن بنا الإشارة إليه مستخلصاً من التنكير والتعريف، لما في التعريف من تعظيم واستغراق لكل درجات الرفعة في السلام مما يناسب درجة عيسى في النبوة وكونه من أولي العزم من الرسل إلى درجة يحيى فيها.

◄ التنوين بالتنوين:

وهي التنوين، فقد قال تعالى في سورة هود[4]: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾، فقد قال الملائكة الذين نزلوا بعذاب آل لوط، ومرّوا بإبراهيم وبشروه: (سَلاماً)، أي: نُسلّم سَلاماً، فقال: (سَلامٌ) أي: سلامٌ عليكم، أو أمري سلامٌ[5]، وأتاهم بما يأكلون لظنّه: أنهم ضيوف من البشر، ويذكر النحاة فرقاً بين المرفوع والمنصوب، وذلك لإفادة الجملة الاسمية الدوامَ والثبوت والاستقرار، وإفادة الجملة الفعلية التجدد والحدوث. قال سيبويه: «هذا باب من النكرة يجري مجرى ما فيه الألف واللام من المصادر والاسم، وذلك قولك: سلامٌ عليك، ولبيك، وخيرٌ بين يديك..

(1) التفسير الكبير: (21/ 216)؛ وينظر في هذا النوع من «أل» التعريف: المرادي - الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق: طه محسن، الموصل، 1975 م، ص: 217؛ مغني اللبيب، ص: 73.

(2) سورة طه، الآية: 47.

(3) سورة طه، الآية: 48.

(4) سورة هود، الآية: 69.

(5) ينظر: النحاس - إعراب القرآن، تحقيق: زهير غازي زاهد، بغداد، 1980 م: 2/ 99 - 100؛ ابن الأنباري - البيان في غريب إعراب القرآن، تحقيق: طه عبد الحميد طه، مراجعة: مصطفى السقا، القاهرة، 1969 م: 2/ 391، التفسير الكبير: 28/ 211 - 212، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: 8/ 139، فتح القدير: 2/ 509.

فهذه الحروف كلها مبتدأة مبنيٌّ عليها ما بعدها، والمعنى فيهنّ أنك ابتدأت شيئاً قد ثبت عندك، ولستَ في حال حديثك تعمل في إثباتها وتزجيتها، وفيها ذلك المعنى»[1]. وقال الفراء (ت 207 هـ): «وينصب الفعل إذا كان أمراً عند الشيء يقع ليس بدائم»[2]، ويفهم من هذا: أن إبراهيم قد حيّا ضيوفه الملائكة بجملةٍ أبلغ من جملتهم، وقدّم إليهم تحيةً أحسنَ ممّا حيّوه به، وكأنه بهذا قد زاد في إكرامهم، وأخذ نفسه معهم بالأدب الإلٰهي في رد التحية: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ﴾[3]، ونظير هذا كله ما ورد في سورة الذاريات[4] أيضاً: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾، وفيه إشارة إلى قصد الإكرام كما لا يخفى.

◄ الجارة بالجارة:

- الباء ← اللام:

قال تعالى في سورة الأعراف[5]: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، وقال في سورة

(1) الكتاب: (1/ 330)؛ وينظر: دلائل الإعجاز، ص: 133 - 134؛ شرح المفصل: 1/ 122؛ شرح الرضي على الكافية: 4/ 177.

(2) الفرّاء - معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، بيروت، 1980 م، ط 2: (1/ 109).

(3) سورة النساء، الآية: 86؛ وينظر: المفردات في غريب القرآن: 239 - 240؛ الكشاف: 4/ 17؛ التفسير الكبير: 28/ 212؛ البحر المحيط: 8/ 138 - 1239؛ الإتقان: 2/ 378 - 379؛ معترك الأقران: 3/ 133، 616؛ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: 8/ 139 - 140؛ بكري شيخ أمين - التعبير الفني في القرآن، بيروت، 1980 م، ط 4: 189؛ عبد العزيز عبد المعطي عرفة - من بلاغة النظم العربي، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، بيروت، 1984 م، ط 2: 238 - 239.

(4) سورة الذاريات، الآيتان: 24 - 25.

(5) سورة الأعراف، الآية: 123.

الشعراء[1]: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وموضع الاستبدال في الآيتين في ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ و﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾، وذلك لكون ضمير الغائب في: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ في آية الشعراء عائد إلى غير ما يعود إليه في آية الأعراف: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾، فهو مع اللام لموسى بدليل قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ ومع الباء لرب العالمين، بدليل قوله: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2]، وفي هذا ما يشير إلى أنّ الدلالة قد اتجهت اتجاهين مختلفين باستبدال اللام بالباء، فالباء في ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ للإلصاق، وهو بعض ما يفيده هذا الحرف لدى النحاة[3]، واللام في: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ للتعليل[4]، أي: آمنتم من أجله، وذلك لكون موسى قد أغضب فرعون في سورة الشعراء حين نال منه بالقول وأفحمه بالحجة[5] أكثر مما فعل في سورة الأعراف، ففي هذا تفسير لتوكيد فرعون ثورة غضبه المتفاقم على السحرة باللام: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، في الموقف الأول، دون الحاجة إلى ذلك في الموقف الثاني.

الباء ← من:

قال تعالى في سورة البقرة[6]: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ

(1) سورة الشعراء، الآية: 49.
(2) سورة الأعراف، الآية: 122. وينظر: درة التنزيل، ص: 176؛ أسرار التكرار في القرآن، ص: 90 - 91؛ البحر المحيط: (4/ 365)؛ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: (3/ 261)؛ فضل حسن عباس - القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته، عمان، 1987 م، ط 1، ص: 246.
(3) ينظر: الكتاب: (4/ 217)؛ شرح المفصل: (8/ 12)؛ الجنى الداني، ص: 102؛ مغني اللبيب، ص: 137.
(4) ينظر: الجنى الداني، ص: 144؛ مغني اللبيب، ص: 275 - 276.
(5) سورة الشعراء، الآيات: 23 - 32؛ وينظر: التعبير القرآني: 296.
(6) سورة البقرة، الآية: 240.

أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. وقال فيها أيضاً[1]: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، مُخبراً عن تمتع المرأة المتوفى عنها زوجها في مفتتح الدعوة الإسلامية حولاً كاملاً، يُنفق عليها من تركته، ولا تخرج من مسكنها، فإنْ خرجت فلا حرج على أولياء الميّت ولا عليها فيما فعلت في نفسها من ترك الحداد، والتزيّن، والتعرّض للخُطّاب، وغير ذلك ممّا ليس بمستنكر شرعاً، ثم نسخت المدة[2] بقوله تعالى: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾[3]، وقد قال تعالى: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ و﴿مِن مَّعْرُوفٍ﴾ في الآيتين، ليُفهَم من النكرة ما أشرنا إليه من أنواع الفعل الذي تجترحه لنفسها مما لا يُستنكر شرعاً، ومن المعرفة فعل الزواج خاصّةً[4]. و(مِنْ) مع النكرة للتبعيض وهو من بعض معانيها لدى النحاة[5]، والمراد بهما: فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من جملة الأفعال التي لهن أنْ يفعلنها من تزوج، أو تطيّب، أو تزيّن مما يُعرف في الدين جوازه، ولهذا خُصّ بـ(مِنْ)، ونكّر[6]، والباء للإلصاق[7]، وهو

(1) سورة البقرة، الآية: 234.

(2) ينظر: جامع البيان في تفسير القرآن: (2/ 360 - 363)؛ الكشاف: (1/ 377)؛ الجامع لأحكام القرآن: (3/ 226)، أسرار التكرار في القرآن، ص: 43؛ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: (1/ 237)؛ الزرقاني - مناهل العرفان في علوم القرآن، القاهرة، 1372 هـ، ط 3: (2/ 157).

(3) سورة البقرة، الآية: 234.

(4) ينظر: جامع البيان في تفسير القرآن: (2/ 320)؛ التفسير الكبير: (6/ 129)؛ الجامع لأحكام القرآن: (3/ 187).

(5) ينظر: الكتاب: (4/ 225)؛ المبرد - المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، بيروت، د. ت: (1/ 44)؛ شرح المفصل: (8/ 12)؛ الجنى الداني، ص: 315؛ مغني اللبيب، ص: 420.

(6) ملاك التأويل: (1/ 274).

(7) ينظر: الكتاب: (4/ 217)؛ شرح المفصل: (8/ 12)؛ الجنى الداني، ص: (315)؛ مغني اللبيب، ص: 137.

كما أسلفنا من بعض معانيها لدى النحاة، أي: لا جناح عليكم في أن يفعلن في أنفسهن بأمر الله، وهو ما أباحه لهنَّ من التزويج بعد انقضاء العدة «فالمعروف ههنا أمر الله المشهور، وهو فعله وشرعه، وبعث عليه عباده»[1]، فعرَّف إذْ كان معرفة، وجاءت الباء دالّةً على الإلصاق لأن الزواج نفسه إلصاق المرأة بالرجل، في حين كان الأول المتعدد من أنواع فعل النساء بأنفسهن وجهاً من الوجوه التي لا تستنكر شرعاً، ومما يؤيد هذا اختلافُ دلالة (إنْ، وإذا) قبل (خَرَجْنَ)، لاحتمال أن يكونَ الخروج مع (إن) قبل بلوغ الأجل مما لم يذكر في الآية الأولى، ولرجحان وقوعه مع (إذا) أو التيقن منه، فقد أشار النحاة إلى مجيء (إنْ) في سياق الشيء المشكوك فيه[2]، فإذا قلت: أقوم إذا قام زيد، اقتضى هذا أنْ يرتبط قيامُك بقيامه، لا يتقدم عليه، ولا يتأخرُ عنه، وإذا قلت: أقوم إنْ قام زيد، اقتضى أن يكون ذلك بعد قيامه في لحظته أو متأخراً عنه، فضلاً عن حصول التقييد بالاستقبال بـ(إنْ) دون اقتضاء تعقيب أو مهلة.

وعلى الرغم من أن استبدال الباء بـ(مِنْ) يؤدي وظيفةً دلالية مهمة، فإن هذه الوظيفة لا يمكن أن تنأى عن بلاغة النسق الفني للسياق العام، فالدلالة تتباين في الآيتين باختلاف مقام التعبير، وقد اقتضى إعجاز البيان القرآني أن يجري التعبير في الآية الأولى على وفق نمط خاص، تضافرت فيه المكونات كلها لإعطاء دلالةِ ذلك النمط بإعطاء الخيار للمرأة خلال حول كامل من معروف مبعض غير محدد لحكمةٍ إلٰهية في ذلك، وحين جاء نسخ الحول وتقييد الخيار بأربعة أشهر وعشرة أيام، اقتضى ذلك تغييراً في نمط التعبير، مما ألقى ظل الدلالة الجديدة في سياق جديد، فإذا كان هناك نوع من الخيار فإن المقام الجديد يتطلب التقييد، والتقييد يتم بالمكونات النحوية: «الباء» الإلصاقية و اللاصقة «أل» التي تُخرج الاسم من التنكير إلى التعريف فتحدده بقصد الزواج المعروف لا غيرُ دون غيره من خيارات

(1) درة التنزيل، ص: 52.
(2) ينظر: الجنى الداني، ص: 360.

المرأة في خروجها إبان العام الواحد، ناهيك عن الدلالة الزمنية في (إذا، وإنْ) والرجحانية أو اليقينية في الأولى والشكية في الثانية. وبهذا تكون القرائن كلُّها قد تضافرت لخدمة السياق الموضوعي، لأن أيَّ تحليل لمعاني الكلمات خارج سياق النص لا يقدّم شيئاً يُعتدّ به في مجال التفسير[1].

- اللام ← مِنْ:

قال تعالى في سورة المائدة[2]: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، وقال في سورة الفتح[3]: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، وموضع الاستبدال (لهُمْ)، (مِنْهُمْ) / مغفرةً باختلاف موقع (مَغْفِرَةٌ) من الإعراب في الآيتين، وقد تقدم آيةَ المائدة قوله تعالى مخاطباً المؤمنين في أول السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾[4]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾[5]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم

(1) ينظر: عفت الشرقاوي - بلاغة العطف في القرآن الكريم، بيروت، 1981 م، ص: 148.

(2) سورة المائدة، الآية: 9.

(3) سورة الفتح، الآية: 29.

(4) سورة المائدة، الآية: 1.

(5) سورة المائدة، الآية: 2.

مِنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾[2]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾[3]، ولم تقع في هذه الآيات أيّة إشارة إلى غير المؤمنين، لذلك (لم يحتج إلى تخصيص الخطاب الوعدي، فأطلق القول، ولم يقيّد بأن يقال: «منهم»)[4] ولم يعمل (وَعَدَ) في لفظ المغفرة كما عمل فيه في آية الفتح التي حلّ فيها منزلة المفعولية الثانية للفعل المذكور، بل جيء بجملة المبتدأ والخبر: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ في المنزلة المذكورة، ليكون ذلك أبلغَ في استحقاقهم ذلك[5]. وعلى هذا كانت اللام فيها للاختصاص، أو للملك والاستحقاق كما ذكر سيبويه[6]، بيد أن آية الفتح: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ قد جاءت بعد أن ضرب الله مثلاً لبدء أمر الإسلام بالرسول ﷺ وحده، وترقّيه في الزيادة إلى أن قويَ واستحكم بمن آمن معه «كما يقوي الطاقة الأولى من الزرع ما يحتفّ بها مما يتولد منها حتى يعجبَ الزرّاعَ»[7]، ومع ما وُصف به المؤمنون الذين كانوا مع الرسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ

(1) سورة المائدة، الآية: 6.
(2) سورة المائدة، الآية: 7.
(3) سورة المائدة، الآية: 8.
(4) ملاك التأويل: (1/ 374).
(5) ينظر: جامع البيان في تفسير القرآن: (6/ 91)؛ درة التنزيل: (89 - 90)؛ ملاك التأويل: (1/ 375)؛ فتح القدير: (2/ 20).
(6) ينظر: الكتاب: (4/ 217)؛ شرح المفصل: (8/ 25).
(7) الكشاف: (3/ 551).

سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾، فقد عاصرهم المنافقون الذين كانوا يتظاهرون بالإيمان ويُسرّون الكفرَ، ويظهر ذلك في الآيات التي سبقت آية الفتح، وفيها بيان لمآلهم، وتوبيخ وتقريع لهم، لما كانوا يبدونه من أعذار للنبي وأصحابه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ﴾[1]، وقوله: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾[2]، وقوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ﴾[3]، وقد صار هؤلاء المنافقون مع المؤمنين في ظاهر أمرهم، دون ما تكنّ صدورهم، فجاء وعده تعالى في قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم﴾ مُخرجاً المنافقين الذين كانوا يتظاهرون بالإيمان، ويُلصقون أنفسهم بالمؤمنين وليسوا منهم، وذلك بـ(مِنْ) التبعيضية التي أدت المعنى المذكور[4]. وما ذكرناه يتناسب مع سياق الآيات في كل من السورتين، خلافاً لمن عدّ (مِنْ) في آية الفتح لبيان الجنس[5]، لا للتبعيض من المفسرين. ويكاد محمد بن جرير الطبري (ت 310 هـ) يصيب الهدف بقوله: «وقوله: (مِنْهُمْ) يعني: من الشطء الذي أخرجه الزرع، وهم الداخلون في الإسلام بعد الزرع الذي وصف ربُّنا تبارك وتعالى صفته»[6]، ولكنه لم يفصّل ما أراد.

إنّ الخطاب في سورة المائدة موجّه إلى المؤمنين الذين وعدهم الله بمغفرة وأجرٍ عظيمين، ولكن جملة هذا الوعد: ﴿لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ قد جاءت

(1) سورة الفتح، الآية: 6.
(2) سورة الفتح، الآية: 11.
(3) سورة الفتح، الآية: 15.
(4) ينظر: ملاك التأويل: (1/ 375 - 377).
(5) ينظر: التفسير الكبير: (28/ 109)؛ الجامع لأحكام القرآن: (16/ 295 - 296)؛ البحر المحيط: (8/ 103)؛ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: (8/ 115).
(6) جامع البيان في تفسير القرآن: (26/ 73).

مستقلة بكيانٍ منفصل، لأن الوعد فيها مطلق غير مقيّد بشيء آخر، واللام فيها للملكية. وبنيتها الأساسية على الحذو الآتي:

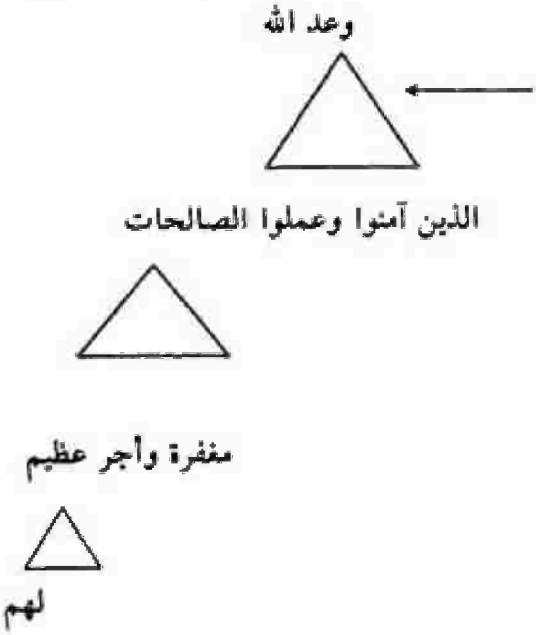

وبهذا برزت أهمية الاختصاص والتوكيد في تقديم ﴿لَهُم﴾ الملكية هنا للعناية والاهتمام، ولذلك جاءت عبارة: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ مستقلة عمّا قبلها لتوكيد استقلال المؤمنين على الإطلاق، في حين ارتبط المغفرة والأجر العظيم في سورة الفتح بالوعد، فهما مقيّدان، وفي هذا مناسبة للفظة (مِنْهُمْ) الدالة من جهتها على التقييد، فالبنية الأساسية لآية الفتح هي:

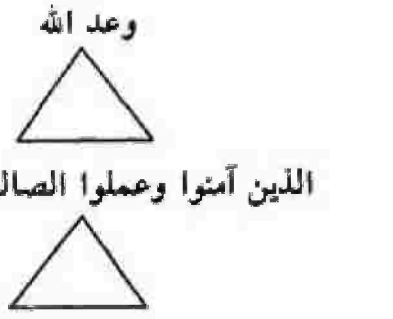

وفي هذه البنية ينكشف عدم استقلال عبارة: ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ المقيّدة. بخلاف ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

اللام ← إلى:

قال تعالى في سورة الزمر[1]: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾. وقال في سورة لقمان[2]: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، فقال: ﴿لِأَجَلٍ﴾ و﴿إِلَىٰ أَجَلٍ﴾، وما ورد باللام يفيد التعليل[3]، بمعنى: كلٌّ يجري لبلوغ أجلٍ مسمّى[4]، أي: كلٌّ يجري لبلوغ هذه الغاية. وما جاء بـ(إلى) يفيد انتهاء الغاية زماناً، قال سيبويه: (وأما «إلى» فمنتهى لابتداء الغاية، تقول: من كذا إلى كذا)[5]، لأن قوله تعالى: ﴿يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معناه: يبلغه وينتهي إليه[6].

وقد خُصّت آية لقمان بـ(إلى) التي تفيد انتهاء الغاية، لأن الآيات التي تكتنفها منبّهة على النهاية والحشر والإعادة، فقبلها قوله تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[7]، وبعدها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾[8]، وقوله

(1) سورة الزمر، الآية: 5.
(2) سورة لقمان، الآية: 29.
(3) ينظر: شرح الرضي على الكافية: (4/ 284)؛ مغني اللبيب، ص: 275 - 276.
(4) ينظر: جامع البيان في تفسير القرآن: (22/ 82)؛ الكشاف: (3/ 237).
(5) الكتاب: (4/ 231)؛ وينظر: المقتضب: (4/ 139).
(6) ينظر: الكشاف: (3/ 237)؛ البحر المحيط: (7/ 139).
(7) سورة لقمان، الآية: 28.
(8) سورة لقمان، الآية: 33.

تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾[1]، فكان المعنى: كل يجرى إلى ذلك الوقت، وهو الوقت الذي تُكوَّر فيه الشمس، وتنكدر فيه النجوم، كما أخبر الله تعالى في سورة التكوير بقوله[2]: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾، في حين جاءت المواضع التي ذُكرت فيها اللام للإخبار عن ابتداء الخلق، وذلك قوله تعالى في الزمر[3]: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾، فالآيات التي تكتنفها في ذكر ابتداء خلق السموات والأرض، وابتداء جري الكواكب، وهي إذ ذاك تجري لبلوغ الغاية[4]. ومثل هذا قوله تعالى في سورتي فاطر والرعد[5]: ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، فاللام فيهما للتعليل، يسبق آية فاطر قوله تعالى في ذكر ابتداء خلق الإنسان: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾[6]، ويسبق آية الرعد، قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[7].

وقد بيّنت آية الزمر قدرة الله على ابتداء الكون من عدم، وبيّنت سورة لقمان البعث وإعادة الخلق بقوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، أي:

---

(1) سورة لقمان، الآية: 34.
(2) سورة التكوير، الآيتان: 1 - 2.
(3) سورة الزمر، الآيتان: 5 - 6.
(4) ينظر: درة التنزيل، ص: 374 - 375.
(5) سورة فاطر، الآية: 13. سورة الرعد، الآية: 2.
(6) سورة فاطر، الآية: 11.
(7) سورة الرعد، الآية: 2.

ولمّا كانت (إلى) مفيدةً الغاية والنهاية، فقد ناسبت مقام العودة إلى أصل الخلق والبعث من النفس الواحدة التي هي المصدر الأول للإنسانية، فاستبدلت باللام.

- إلى ← على:

قال تعالى في سورة البقرة[1]: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾. وقال في سورة آل عمران[2]: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾، فقال: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾، ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾، وذلك لأن قوله في آية آل عمران: ﴿قُلۡ﴾ خطاب لنبيه ﷺ خاصةً بوحي منزَّلٍ من السماء، بدلالة (على) التي وصفها سيبويه بقوله: «أما «على» فاستعلاء الشيء، تقول: هذا على ظهر الجبل، وهي على رأسه.. وتقول: عليه مالٌ، وهذا كالمثل، كما يثبت الشيء على المكان، كذلك يثبت هذا عليه، فقد يتّسع هذا في الكلام، ويجيء كالمثل»[3]. والخطاب الآتي بها من علٍ مختصّ بالأنبياء وحدهم «لأن الكتب منزلة عليهم لا شركة للأمة فيها»[4]. بخلاف الخطاب في آية البقرة: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ فهو موجّه للمسلمين عامة، وفيه ردّ على قول اليهود والنصارى الذين قالوا لهم:

(1) سورة البقرة، الآية: 136.
(2) سورة آل عمران، الآية: 84.
(3) الكتاب: (4/ 230 - 231)؛ وينظر: المقتضب: (4/ 426)؛ مغني اللبيب، ص: 190.
(4) أسرار التكرار في القرآن، ص: 36.

﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾[1]، و(إلى) كما يقول النحاة لانتهاء الغاية[2]، والمؤمنون لم يتلقوا وحياً مباشراً، وإنما أُنزل الوحي على الأنبياء، ثم انتهى من عندهم إليهم. فلمّا كان ﴿قُولُوا﴾ خطاباً لأمم الأنبياء دون الأنبياء أنفسهم، كان اختيار (إلى) أولى من اختيار (على) في هذا المكان، وقد جعل ما لحقه في قوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ إتباعاً له، ولمّا كانت آية آل عمران قد صدرت بما هو خطاب للنبي ﷺ كانت (عَلى) أحقَّ بهذا المكان، لأن الوحي قد أُنزل عليه[3]، فناسب كل حرف مكانه من آيته:

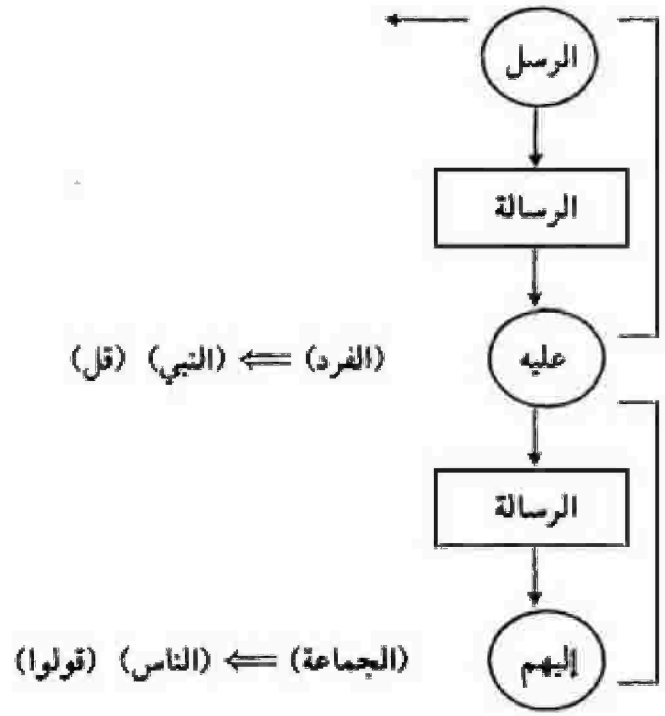

(1) سورة البقرة، الآية: 135.

(2) ينظر: الكتاب: (4/ 231)، المقتضب: (4/ 139)؛ مغني اللبيب، ص: 104.

(3) ينظر: درّة التنزيل، ص: 35؛ أسرار التكرار في القرآن، ص: 35 - 36؛ ملاك التأويل: (1/ 238 - 239)؛ الإتقان: (3/ 394)؛ معترك الأقران: (1/ 91)؛ الخطيب العمري - تبجان البيان في مشكلات القرآن، دراسة وتحقيق: حسن مظفر الرزو، الموصل، 1985 م، ط 1، ص: 253.

◄ الجارة بالعاطفة

- الباء ← الواو:

قال تعالى في سورة القدر[1]: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾، وقال في سورة النحل[2]: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾، فقال: ﴿وَٱلرُّوحُ﴾ و ﴿بِٱلرُّوحِ﴾، والسياق الأول في بيان فضل ليلة القدر، وهي ليلة ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[3]، وقد ذهب معظم اللغويين والمفسرين إلى أن المراد بالروح في سورة القدر هو جبريل عليه الصلاة والسلام بدلالة قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[4]، ينزل في تلك الليلة، ومعه الملائكة[5]. وإنما ذكر جبريل مع الملائكة مع أنه من جنسهم، تعظيماً له وتشريفاً[6]. وقد قيل في تسميته بالروح ما يحصل بوجوده من حياة للقلب بالهداية والمعرفة[7]. والمراد بالروح في الآية الثانية هو الوحي المنزَّل من عند الله تعالى على رسله، من جملته القرآن الكريم[8]، لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ

---

(1) سورة القدر، الآية: 4.

(2) سورة النحل، الآية: 2.

(3) سورة القدر، الآية: 3.

(4) سورة الشعراء، الآيتان: 193 - 194.

(5) ينظر: الفرّاء - معاني القرآن: (3/ 280)؛ جامع البيان في تفسير القرآن: (30/ 168)؛ إصلاح الوجوه والنظائر، ص: 212؛ الكشاف: (4/ 273)؛ منتخب قرة العيون النواظر، ص: 132؛ التفسير الكبير: (32/ 34)؛ القرطبي - الجامع لأحكام القرآن، القاهرة، 1967م، ج 20، تحقيق: مصطفى السقا، ص: 133؛ فتح القدير: (5/ 472).

(6) ينظر: التفسير الكبير: (32/ 34)؛ فتح القدير: (5/ 472).

(7) ينظر: التفسير الكبير: (19/ 220).

(8) ينظر: جامع البيان في تفسير القرآن: (14/ 53)؛ القاضي عبد الجبار - تنزيه القرآن عن المطاعن، بيروت، د. ت، ص: 217؛ إصلاح الوجوه والنظائر، ص: 212؛ منتخب قرة العيون النواظر، ص: 132؛ التفسير الكبير: (19/ 220)؛ الجامع لأحكام القرآن: (10/ 67)؛ الإتقان: (2/ 151)؛ فتح القدير: (3/ 147).

أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[1]. وسُمي به روحاً لأنه يحيي القلوب الميّتة بالجهل، أو يقوم في الدين مقام الروح في الجسد[2]. قال الفخر الرازي: «القرآن والوحي به تَكْمُلُ المعارفُ الإلهية والمكاشفاتُ الرّبّانيةُ، وهذه المعارف بها يشرق العقلُ ويصفو ويكمل، والعقل به يكمل جوهر الروح، والروح به يكمل حال الجسد، وعند هذا يظهر أنّ الروح الأصليَّ الحقيقيَّ هو الوحيُ والقرآن، لأنه به يحصل الخلاصُ من رقدة الجهالة ونوم الغفلة، وبه يحصل الانتقال من حضيض البهيمية إلى أوجّ الملكية»[3]. فالباء في الآية قبله للإلصاق[4]، لأن الوحي يلتصق بقلوب عباد الله، ويتمكن من عقولهم. وسياق الآية مردود إلى ما كان المشركون يستعجلون به الرسولَ من قيام الساعة أو نزول العذاب بهم في يوم بدر استهزاءاً وتكذيباً لوعده[5]، فقيل لهم: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[6]، ووجه اتصال قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ بما قبلها أن النبي ﷺ لمّا أخبرهم عن الله أنه قد قرب أمره ونهاهم عن الاستعجال ترددوا في الطريق التي علم بها الرسول، فأخبر الله تعالى أنه علم بها بالوحي على ألسنة الرسل من الملائكة[7].

◄ العاطفة بالعاطفة:

ليست الكلمة - فيما نعلم - معنىً محدوداً عارياً من الظلال والإيحاءات، تكفي مراجعة المعجم في معرفة تفسيره ودلالته. كما أن الكلمات لا تتفاضل في ذاتها بل «تستمد حرارتها وحركتها من خلال السياق العام، وعن سبيل الوثاق

(1) سورة الشورى، الآية: 52.
(2) ينظر: تنزيه القرآن عن المطاعن، ص: 217؛ الكشاف: (2/ 400)؛ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: (5/ 95).
(3) التفسير الكبير: (19/ 219 - 220).
(4) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: (5/ 95).
(5) ينظر: الكشاف: (2/ 4).
(6) سورة النحل، الآية: 1.
(7) ينظر: فتح القدير: (3/ 147).

الوثيق بين اللفظ وما سبقه وما لحقه ينمو خط نفسي يشعّ بكل العطاء الفني»[1].
وأسلوب العطف «سياق تنتظم الكلمات في بنائه، وتكشف عن تعاطف بين الأشياء، يتم من خلالها العثور على علاقة تضايف جديدة بين الموجودات»[2]، وفي القرآن الكريم من أنماط العطف ووجوه الاستبدال بين أدواته ما يُلفت النظر، مما سنعرض له في هذه الفصلة من البحث:

- الفاء ← ثم:

قال تعالى في سورة الأنعام[3]: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، وقال في سورة النمل[4]: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ فقال: ﴿ثُمَّ انْظُرُوا﴾ و﴿فَانْظُرُوا﴾ لتدل ﴿ثُمَّ﴾ في آية الأنعام على التراخي والمهلة[5]، والفاء في آية النمل على الترتيب والتعقيب[6]، وضع ﴿ثُمَّ﴾ مناسب للجو العام لسورة الأنعام، فقد بُنيت على تأخير الوعيد والعقوبات، قال تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[7]، وقال: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾[8]، فقد أمر الله رسوله أن يقول إنه ليس عنده ما يستعجل المشركون به من العذاب، وقال: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾[9]، وقال: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ

(1) رجاء عيد - في البلاغة العربية، أسيوط، د. ت، ص: 53.
(2) بلاغة العطف في القرآن الكريم، ص: 151.
(3) سورة الأنعام، الآية: 11.
(4) سورة النمل، الآية: 69.
(5) ينظر: المقتضب: (1/ 10)؛ الجنى الداني، ص: 406؛ مغني اللبيب، ص: 158 - 160.
(6) ينظر: الكتاب: (4/ 217)؛ المقتضب: (1/ 10)؛ الجنى الداني، ص: 121؛ مغني اللبيب، ص: 213 - 214.
(7) سورة الأنعام، الآية: 5.
(8) سورة الأنعام، الآية: 57.
(9) سورة الأنعام، الآية: 135.

﴿ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[1]، وهذا يفيد تأخير الحساب والجزاء إلى يوم القيامة، لهذا أمر الله تعالى رسوله في هذا السياق بإخبار المشركين بأنه تعالى ليس عنده ما يستعجلهم به من العذاب، وقد تقدم في هذه السورة ذكر القرون في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾[2] وكانوا قد أمروا في آيتها باستقراء الديار، وتأمل الآثار الكثيرة الدالة على ذلك، لهذا قال الكرماني (المتوفى في العقد الأول من القرن السادس للهجرة): «يقع ذلك سيراً بعد سير وزماناً بعد زمان، فخُصت بـ«ثم» الدالة على التراخي بين الفعلين، ليُعلم أن السير مأمورٌ به على حدة، والنظر مأمور به على حدة»[3]، لأنه دعا إلى العلم بذلك سيراً في البلاد، ومشاهدة للآثار «وفي ذلك ذهاب أزمنة كثيرة، ومددٍ طويلة تمنع النظر من ملاصقة السير»[4].

أما الفاء في آية النمل فسببية عطفت جملةً على جملة[5]، لأنه تعالى قد جعل السير سبباً للنظر في قوله: ﴿فَٱنظُرُوا﴾، فكأنه قد قيل: «سيروا لأجل النظرِ ولا تسيروا سير الغافلين»[6]، ويدل هذا على أن السير يؤدي إلى النظر ويقع عقيبه، وبهذا تكون الفاء واقعةً في الجزاء بخلاف (ثم) التي لم تقع فيه[7].

وإلى جانب ذلك، فإن وضع (ثم) في آية الأنعام مقتضىً بالسياق من نواحٍ عدة، في حين اقتضى سياق آية النمل مجيءَ الفاء، فقد خُتمت آية الأنعام بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، وخُتمت آية النمل بقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، لأن المكذب قد يُعطى له مهلةٌ أطول من مهلة المجرم الذي ينبغي أن يؤخذ بجريمته على وجه التعقيب، وفي هذا

(1) سورة الأنعام، الآية: 12.
(2) سورة الأنعام، الآية: 6.
(3) أسرار التكرار في القرآن، ص: 65 - 66؛ وينظر: ملاك التأويل: (1/ 423 - 424).
(4) درة التنزيل، ص: 112.
(5) ينظر: مغني اللبيب، ص: 215.
(6) الكشاف: (2/ 7)؛ التفسير الكبير: (12/ 363)؛ وينظر: معترك الأقران: (3/ 58).
(7) ينظر: درة التنزيل، ص: 111 - 112.

تفسير لمجيء (ثم) مع المكذبين، والفاء مع المجرمين[1]. ثم لننظرْ إلى قوله تعالى بعد آية النمل: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾[2]، وقوله في سورة الأنعام: ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾[3]، فالفرق بينهما في الإشارة إلى الاستعجال من عدمه، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنّ ما ذُكر من التكذيب والسخرية في سورة النمل أكبر مما ذُكِرَ في سورة الأنعام، فقد تلا قوله تعالى في سورة النمل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾[4]قوله الكريم: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[5]، فاقتضى ذلك التعجيل بالفاء.

- **الواو ← ثم:**

قال تعالى في سورة الأعراف[6]: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾. وقال في سورة الشعراء[7]: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وحدث ما قبل فعل التصليب استبدال الواو التي تفيد الجمع[8] بـ(ثم) التي تفيد التراخي والمهلة[9] في الزمان «وقد تكون للتباين في الصفات والأحكام، وغير ذلك مما يحمل به ما بعدها على ما قبلها من غير قصد

(1) ينظر: التعبير القرآني، ص: 167 - 170.
(2) سورة النمل، الآية: 72.
(3) سورة الأنعام، الآية: 57.
(4) سورة النمل، الآيتان: 67 - 68.
(5) سورة النمل، الآية 69.
(6) سورة الأعراف، الآيتان: 123 - 124.
(7) سورة الشعراء، الآية: 49.
(8) ينظر: الكتاب: (4/ 216)، شرح المفصل: (8/ 90)، الجنى الداني، ص: 188؛ مغني اللبيب، ص: 463.
(9) ينظر: المقتضب: (1/ 10)؛ الجنى الداني، ص: 406؛ مغني اللبيب، ص: 158 - 160.

مهلةٍ زمانية، بل ليُعلم موقعُ ما يُعطف بها وحاله»[1]. وقد قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: «فإن قلت: ما وجه ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، وما يعطيه من معنى التراخي؟ قلت: هما آيتان من جملة الآيات التي عدّدها دالاً على وحدانيته وقدرته تشعيب هذا الخلق الفائت للحصر من نفس آدم وخلق حوّاء من قصيراه، إلّا أنّ إحداهما جعلها الله عادةً مستمرة، والأخرى لم تجرِ بها العادةُ، ولم تُخلق أنثى غيرُ حوّاء من قصيري رجلٍ، فكانت أدخلَ في كونها آيةً، وأجلب لعجب السامع، فعطفها بـ(ثم) على الآية الأولى للدلالة على مباينتها لها فضلاً ومزيةً، وتراخيها عنها يرجع إلى زيادة كونها آيةً، فهو من التراخي في المنزلة لا من التراخي في الوجود»[2]. ولمّا سبق آية الأعراف الأخبارُ بتهويل الواقع في نفوس الحاضرين من فعل السحرة بقوله تعالى: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[3]، فقد أنس ﷺ بقوله: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[4]، وتهويل ما توعد به فرعون سحرته في قوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[5]، فعطف بـ(ثم) ليفيد ما قصد إليه من تعظيم موقع ما توعدهم به من التصليب وإطالته تعذيباً، وكان فعل السحرة حين ألقوا حبالهم وعصيّهم فخُيّل إلى فرعون والحاضرين أنها حيات تسعى، أثّر فيهم ذلك، ووقع منهم موقعاً تعلّق به رجاؤهم في تكذيب موسى، ولكنه أبطل كيدهم وباطلهم حين ألقى عصاه ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾[6]، فخرّ السحرة ساجدين لله تعالى واستشعر فرعون ما حلّ به وبملئه، فهوّل في توعّد السحرة فقال ما قاله تجلّداً وتصبّراً، أو تعزيةً لنفسه عمّا نزل به،

(1) ملاك التأويل: (1/ 574).
(2) سورة الزمر، الآية: 60؛ الكشاف: (3/ 338).
(3) سورة الأعراف، الآية: 116.
(4) سورة طه، الآية: 68.
(5) سورة الأعراف، الآية: 124.
(6) سورة الأعراف، الآية: 117.

فأرعد وأبرق في تهويل وعيده[1]، بيد أن آية الشعراء لم تتضمن شيئاً من تهويل الواقع من فعل السحرة في النفوس، لمجيء ذلك بصيغة إخبارٍ معتاد في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾[2]، ثم جرى عطف فعل التصليب على فعل التقطيع بالواو التي تفيد الجمع بين الفعلين نوبةً واحدة نفياً لإطالة مدة التكذيب بما يُنتظر منه إيقاع أشدّ ما يكون من الرعب في نفوس السحرة المخفقين في مقابلة آية موسى.

إنَّ التحايل السياقي لصدري قوله تعالى في سورة الكهف[3]: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾، وقوله في سورة السجدة[4]: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ يبين وجوه توافق بينهما، غير أن الفرق بين وحدتيهما النحويتين: ﴿فَأَعْرَضَ﴾ و﴿ثُمَّ أَعْرَضَ﴾ متحقق بالأداتين العاطفتين، وأولاهما مفيدة الترتيب والتعقيب[5]، والثانية التراخي والمهلة[6]، وهاتان الوحدتان ترفدان قواعد بنية العبارة عن طريق الاستعارة من المعجم، وهما تتصلان بالعلاقات الدلالية المستنبطة من التوافق بين القوانين المعجمية والقوانين التركيبية، فهذه العلاقات هي المسؤولة عن اختيار المفردة المعجمية حين توضع في الموقع الذي تؤدي فيه وظيفةً نحوية محددة، لأن البنية السطحية في حقيقتها نتاج لهذين القانونين، مما يجعل المفردة المعجمية تبدي مرونة عجيبة في تكيّفها مع العلاقات الناجمة في السياق، ومن الثابت أن معاني الجمل هم من معاني بعض أجزائها، أو من

(1) ملاك التأويل: (1/ 575).
(2) سورة الشعراء، الآية: 44.
(3) سورة الكهف، الآية: 57.
(4) سورة السجدة، الآية: 22.
(5) ينظر: الكتاب: (4/ 217)؛ المقتضب: (1/ 10)، الجنى الداني، ص: 121؛ منتخب قرة العيون النواظر، ص: 87.
(6) ينظر: المقتضب: (1/ 10)؛ الجنى الداني، ص: 406؛ مغني اللبيب، ص: 58-60.

الدلالة المعجمية المستقلة لتلك الأجزاء، بحيث يظهر التمثيل الدلالي لمكوّنات الجملة من خلال ترتيب تلك المكونات، ومن الطريقة التي تنظمها في السياق، وعن طريق القواعد التي تربط المعاني بالألفاظ تتم ترجمة اللفظ عن المعنى[1]:

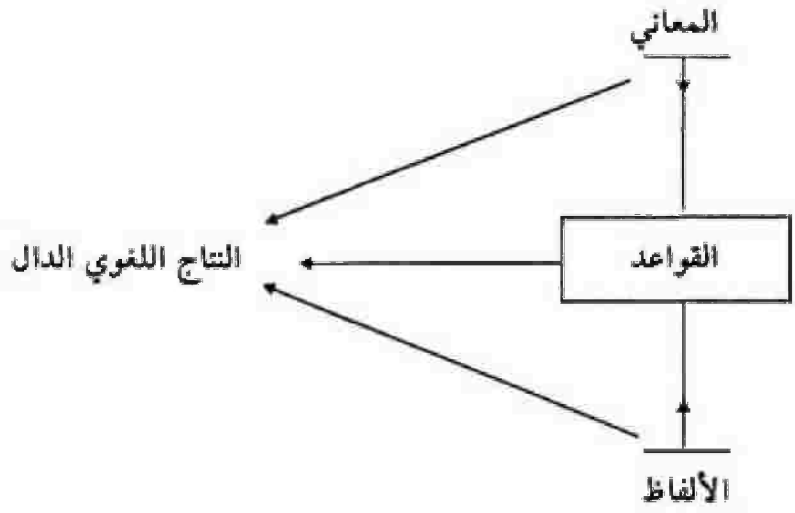

وعلى الرغم من مسؤولية القوانين التركيبة عن إقحام المفردات المعجمية داخل السياق، فإن هذه القوانين غير منفصلة عن الدلالة الظاهرة في البنية السطحية بوصفها ألفاظاً قائمة بنفسها، ويتضح هذا في تحليل قوله تعالى في الآيتين المذكورتين آنفاً:

(1) Ronald W - Fundamentals of Linguistic Analysis, New York / 1972; P. 2.

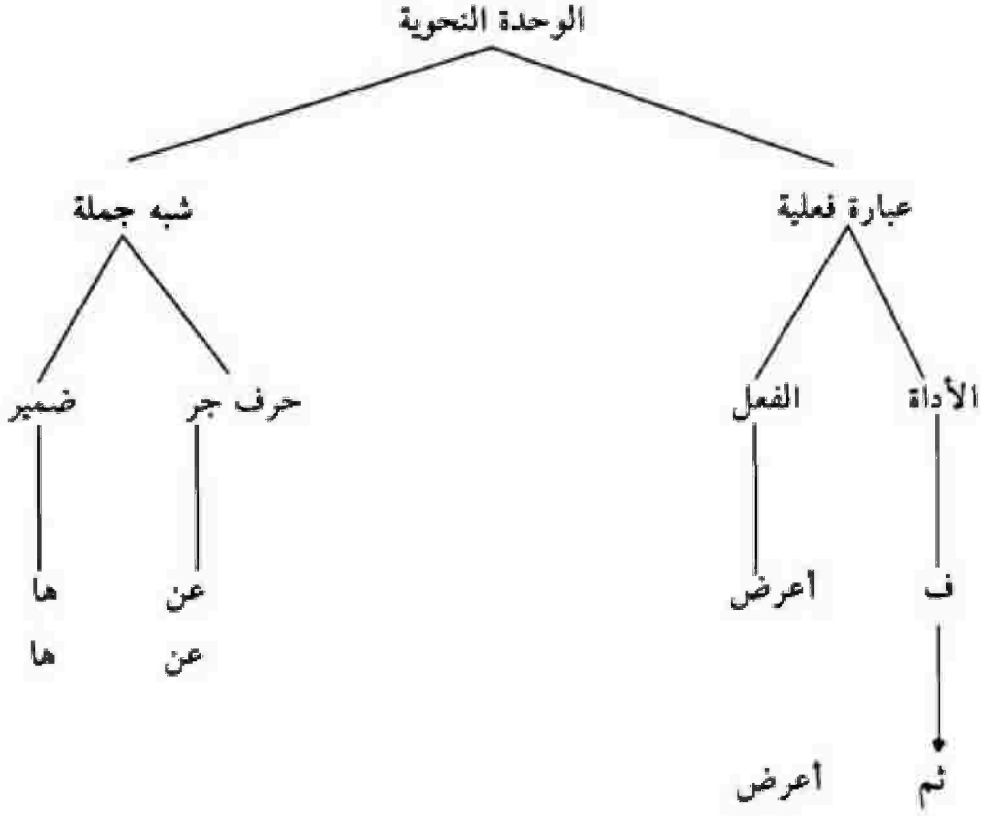

إنّ ما ذكر من وقوع الإعراض في آية الكهف أسرع في آية السجدة، فهو واقع عقب التذكير، تدل على ذلك أقواله تعالى في آية الكهف: ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، و﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، و﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ فهي في قوم يستدعون إلى الإيمان، ولم تختم أعمالهم بالكفر، لقوله تعالى: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾[1]، ويظهر من هذا أن الآية في الأحياء من الكفار «إذ ذكّروا فأعرضوا عقيب ما ذكّروا، ونسوا ذنوبهم، وهم بعد متوقع منهم أن يؤمنوا»[2]،

(1) سورة الكهف، الآية: 56.

(2) أسرار التكرار في القرآن، ص: 133؛ وينظر: درة التنزيل، ص: 283؛ التعبير القرآني، ص: 180 - 181.

وليس كذلك قوله تعالى في آية السجدة: ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾، فالآية في وصف الأموات منهم في يوم القيامة، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[1]، إلى قوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ﴾[2]، أي: «ذكّر مدة عمره بآيات ربه، وتطاول الأمر بزجره ووعظه، ثم ختم ذلك بترك القبول، وبالإعراض، فكان هذا قولاً يقال فيهم عند الانتقام منهم»[3].

قال تعالى في سورة الأنعام[4]: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾، وقال في سورة يونس[5]: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾، فقد قال في الموضعين: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟﴾ و﴿وَرُدُّوٓا۟﴾ باستبدال الواو العاطفة التي هي للجمع[6]، بالتقارب أو التراخي بين متعاطفيها[7] بـ(ثم) العاطفة التي تفيد التراخي والبعد حسب[8]. والسبب في ذلك أن آية الأنعام جاءت بعد قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾، ثم قال: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾، أي: ردّهم الله الذي هو خالقهم ورازقهم بعد البعث للحساب[9]، ومعلوم أن المدة بين موت العبد وردّه إلى الله للحشر والحساب طويلة، وفي هذا

(1) سورة السجدة، الآية: 12.
(2) سورة السجدة، الآيتان: 21 - 22.
(3) درة التنزيل، ص: 283؛ وينظر: أسرار التكرار في القرآن، ص: 133.
(4) سورة الأنعام، الآيتان: 61 - 62.
(5) سورة يونس، الآية: 30.
(6) ينظر: الكتاب: (4/ 216)؛ شرح المفصل: (8/ 90)؛ الجنى الداني، ص: 188.
(7) ينظر: مغني اللبيب، ص: 463.
(8) ينظر: المقتضب: (1/ 10)؛ الجنى الداني، ص: 406؛ مغني اللبيب، ص: 160.
(9) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: (7/ 7).

اقتضاء لمجيء (ثم) دون الواو، وفي مجيء ﴿أَحَدَكُمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ مفرداً، والتكنية عنه بالجمع في قوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا﴾ ملاحظة لوقوع التوفي على الانفراد عادةً، والردّ للحساب والجزاء على الاجتماع[1]. وجاءت آية يونس بعد قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ ليعرف العباد أن ذلك سيكون في ذلك المكان، وفي ذلك الموقف أو في ذلك الوقت، والمقصود به يوم القيامة عندما تقف الخلائق للحساب، فتختبر كل نفس ما أسلفت من الأعمال في الدنيا، ويفهم من قوله تعالى:

﴿وَرُدُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ أن ذلك الموقف سيكون حساباً وجزاءً، بعد الحشر الذي تحدثت عنه آيات السورة نفسها، فقد قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾[2]، أي: فرّقنا وقطعنا ما كان بين المشركين وشركائهم من الأوثان والشياطين من التواصل في الدنيا[3]، ثم قال: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾، والمدة بين الحشر والرّد إلى الله تعالى للحساب والجزاء ليست طويلة قياساً بالمدة التي بين الموت وبين حلول يوم الحساب والجزاء، ولذلك استعملت «الواو» المفيدة للتقارب في أحد معنييها.

من الواضح أن التحليل النحوي الصائب لا ينفصل عن الحكم الفاصل في تحديد المعنى، فطبيعة التحليل الدلالي ترتبط كما أسلفنا بمواقع ظهور المكونات النحوية، وهذه الحقيقة لا تنفكّ عن إحساس الباحث اللغوي بالمعنى المقصود، فالموت الذي يجيء الفرد الواحد كما أخبر عنه في سورة الأنعام غير الرد الجماعي إلى الله، على فتور واقع بين الحدثين، ليكون ثمة حساب بحضرة أسرع الحاسبين يوم القيامة، ولمّا كان البون بين الموت والحشر ظاهراً، فإن (ثم)

(1) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: (3/ 145).
(2) سورة يونس، الآية: 28.
(3) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: (8/ 333).

ملائمة للبنية السطحية التي ترتبط ببنية دلالية مفهومة من خلال السياق. فالتقارب الدلالي بين الوحدات المعجمية:

أحدكم / توفته / ردّوا / و ⟸ (ثم)

يكشف الدلالة العامة للآية القرآنية، في حين يتضح التمثيل الدلالي لآية يونس من خلال:

هنالك / أسلفت / و ⟸ (و).

فإذا كانت اللغة نظاماً متكاملاً من حيث القوانين المحكمة التي تجعل ذلك النظام مفهوماً[1]، فإن الأسلوب الذي تحدثنا عنه هو الفن الذي يخلع على اللغة طرازها البديع، والقرآن الكريم في القمّة منه، ففي سورة يونس بدأ الحساب، واختبار النفوس، بعد ردّ العباد إلى الله مولاهم الحق، وكانت «الواو» أداة التناسب الجامع بين الحشر والاختبار، ومع أن حدث الرّد مستقبلي، فقد ذكر بصيغة الماضي المبني للمجهول ﴿رُدُّوٓا﴾ في الآيتين، لأنه متحقق الوقوع، مقطوع بحصوله لا محالة[2].

ومن استبدال «الواو» بـ(ثم) أيضاً، قوله تعالى في سورة التوبة[3]: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وقوله فيها: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[4]، والحديث عن الرد أيضاً، وقد نزلت الآية الأولى في المنافقين الذين استأذنوا رسول الله ﷺ في التخلف عن غزوة تبوك، فأذن لهم[5]، يدل على ذلك سياق الآيات التي قبلها، فقد قال

(1) David Crystal - What is Linguistics - London / 1981: P: 17.
(2) ينظر: شرح الرضي على الكافية: (4/ 12).
(3) سورة التوبة، الآية: 94.
(4) سورة التوبة، الآية: 105.
(5) ينظر: الكشاف: (2/ 205).

تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾[1]، إلى قوله: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾[2]، ولإفادة (ثم) التراخي والبعد، فإن معنى قوله تعالى للمنافقين: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾: سيعلم الله حقيقة عملكم، ويراه من غير اعتقاد صحيح منكم، وأن اعتذاركم للرسول والمؤمنين إنما هو قول بألسنتكم لا يطابقه ما تنطوي عليه ضمائركم، وهذا يدل على أن الجزاء عليه سيكون بخلافه، فاقتضى ذلك الفصل بينه وبين ردّهم إلى الله تعالى للحساب والجزاء عليه، ومع أنه ﷺ يعلم أن ظاهر عملكم خلاف باطنه، فقد أمرنا الله بالرضا به، وحقن دمائكم له، ثم إن الحكم إذا رددتم إليه في الآخرة سيكون بخلافه ولبعد ما بين الظاهر من عملهم وما يجازون به دخلت (ثم)[3]، وفي هذا فضلاً عمّا فيه من تخويف وزجر تصويرٌ للمسافة الشعورية الشاسعة بين ظاهر المنافق وباطنه، فليس ثمة تطابق بينهما، وقد عبّر ﷺ عن هذه الحقيقة بأدوات نحوية كامنة في زمنين متباينين للدلالة على التباين الحاصل بين الظاهر والباطن بـ(لا) الدالة على الحال، و (لن) الدالة على الاستقبال[4]، لأن ماضي المنافقين لا ينفك عن حالهم المعبر عنها بـ(قد) التي تفيد تقريب المضي من الحضور[5]. أما الآية الثانية فإن الخطاب فيها للمؤمنين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك مع من تخلف فاعترفوا بذنوبهم[6]، وأنابوا إلى الله، يشهد بذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[7].

(1) سورة التوبة، الآية: 81.
(2) سورة التوبة، الآية: 87.
(3) درة التنزيل، ص: 204.
(4) ينظر: شرح المفصل: (8/ 111)؛ مغني اللبيب، ص: 373.
(5) ينظر: شرح المفصل: (7/ 147)؛ مغني اللبيب، ص: 228.
(6) ينظر: جامع البيان في تفسير القرآن: (11/ 16).
(7) سورة التوبة، الآية: 102.

فالواو العاطفة في قوله: ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾ مفيدة الجمع. وفي الآية نفسها بعث على عمل الخير، لقوله: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، وهذا وعد، لا يشاكل الوعيد الموجّه للمنافقين في الآية الأولى، بل يشاكل أفعال المؤمنين ويطابق أعمالهم من حسن الثواب، وجميل الجزاء، ولا يبعد عنها كبعد جزاء المنافقين عمّا هو ظاهر من أعمالهم التي يراؤون بها ويعلم الله تعالى خلافها منهم[1]، وقد أجري الكلام على نسق واحد فقيل: ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ﴾ باستعمال الواو المفيدة للمشاركة والجمع، أي: أن باطن المؤمن وظاهره متطابقان مشتركان في صفة الصدق، بخلاف ما في الآية الأولى من القول المتعلق بنفي الاعتذار، وهو في الآية الثانية متعلق بالإثبات، لأن الصفاء حاصل فيها، وتمثل لنا الآية الأولى تضاداً بين المجاهدين والقاعدين، و «الله» والقاعدين، وهذا مما يشعرنا بوجود مسافة شعورية شاسعة بين قطبي التضاد:

تباين

الله ← القاعدون

المجاهدون ← القاعدون

فإذا رمزنا لقطبي التضاد للحالة الأولى بـ«أ» و«ب»

فإن أ ≠ ب

ولو رمزنا للمجاهدين بـ«ج»

فإن ج ≠ ب، ولهذا فإن:

ج ≠ ب

أي أن أ + ج ≠ ب

ومن حيث اتصال الصيغة بالزمن فإن:

(1) درة التنزيل، ص: 204.

لا تعتذروا ← الحال

لن نؤمـــن ← الاستقبال

والمسافة الزمنية بين الحال والاستقبال تشكل من طرفيها قطبي تضاد آخر، ولمّا كان التركيب النحوي مجموعةً من علاقات ترابطية[1]، فإن الربط بين [قُلْ] و[سَيَرى] في الآية الأولى طويلة «ط - »، وفي الآية الثانية قصيرة «ط +»، فضلاً عن القول المنفي «-» في الآية الأولى، والموجب «+» في الثانية.

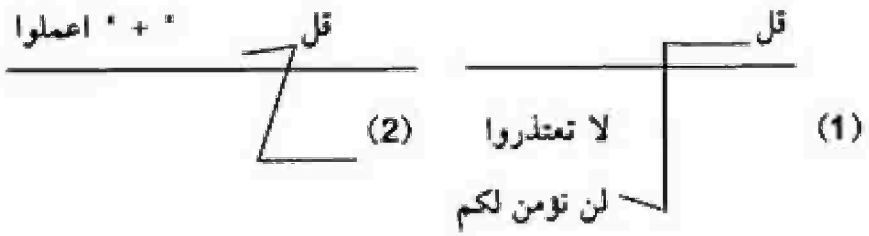

الواو ← الفاء:

قال تعالى في سورة طه[2]: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾، وقال تعالى في سورة السجدة[3]: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾، فبدأ بالفاء بعد الاستفهام في الأولى، وبالواو بعده في الثانية، وذلك لأنه أومأ في سورة طه إلى عقوبات الدنيا والآخرة معاً، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[4]، فذكر المعيشة الضنك في الدنيا لمن يعرض عن ذكر ربه، وحشر العمى في الآخرة، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾[5]، يعني: في

(1) جوزيف ميشال شريم - دليل الدراسات الأسلوبية، بيروت، 1984 م، ص: 39.
(2) سورة طه، الآية: 128.
(3) سورة السجدة، الآية: 26.
(4) سورة طه، الآية: 124.
(5) سورة طه، الآية: 127.

حياته الدنيا، بخلاف ما في سورة السجدة فإنه تعالى أخّر الأمر إلى يوم القيامة، وكان قد قال قبل هذه الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[1]. فجاء بالفاء العاطفة في سورة طه لإفادة الترتيب والتعقيب[2]، وجاء بالواو العاطفة[3] في سورة السجدة لإفادة الجمع[4]، وجواز أن يكون ما بعدها متراخياً عمّا قبلها[5]، وعذاب الآخرة في معلومنا الحاضر متراخ.

كما استبدلت الفاء بالواو أيضاً في قوله تعالى في سورة الأعراف[6]:

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، وقوله في سورة النمل[7]: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، وذلك في مستهلّهما، وقد نزلت هاتان الآيتان في قوم لوط عليه الصلاة والسلام حين وبخهم على فعلهم القبيح، وركوبهم ما حرمه عليهم من العمل الخبيث[8]، فلم يكن لهم جواب عمّا كلمهم به، ولكنهم جاءوا بشيء آخر لا علاقة له بكلامه ونصيحته، ولا يصلح أن يكون جواباً له، فأمروا بإخراجه من قريتهم ومن معه من المؤمنين، ضجراً بهم، وبما يُسمعونهم من الوعظ والنصيحة[9].

وقد جيء بالفاء العاطفة الدالة على الترتيب والتعقيب في قوله في آية النمل: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ لتدل على أن جوابهم كان أسرع منه في آية الأعراف،

(1) سورة السجدة، الآية: 25.
(2) ينظر: الكتاب: (4/ 217)؛ المقتضب: (1/ 10)؛ مغني اللبيب، ص: 213 - 214.
(3) ينظر: أبو عبيدة - مجاز القرآن، عارضه بأصوله وعلّق عليه: محمد فؤاد سزكين، القاهرة، 1970م، ط 2: (2/ 133)؛ الكشاف: (3/ 246)، ملاك التأويل: (2/ 829).
(4) ينظر: الكتاب: (4/ 216)؛ شرح المفصل: (8/ 90)؛ الجنى الداني، ص: 188.
(5) ينظر: مغني اللبيب، ص: 463.
(6) سورة الأعراف، الآية: 82.
(7) سورة النمل، الآية: 56.
(8) جامع البيان في تفسير القرآن: (8/ 165).
(9) ينظر: الكشاف: 2/ 92؛ التفسير الكبير: (24/ 204).

وسياق كل من الآيتين يقتضي ما ذكرنا، فقد قال ﷻ في سورة الأعراف[1]: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ وقال في سورة النحل[2]: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾. ويظهر من هذا أن مقام الإنكار والتقريع في سورة النمل أشدّ منه في سورة الأعراف، يدل على ذلك: قوله تعالى في الأعراف: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾، وقوله في النمل: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ بعد همزة الاستفهام المفيدة للإنكار والتوبيخ، ويفهم من قوله تعالى في الأعراف: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾، وقوله في النمل: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أن الوصف بالجهل فيه زيادة توبيخ، ذلك أن وصف الإنسان بالإسراف أهون من وصفه بالجهل، ولذلك فقد بادر قوم لوط بالرد السريع بلا أناة ولا ريث، لأنه أغاظهم بكلامه في النمل أكثر مما حصل في الأعراف[3]، فجاءت الفاء لتدل المستمع وشيكاً على إصرار أولئك على قبائحهم[4]. ومما يدل على شدة غيظهم تصريحهم باسمه في آية النمل: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ﴾، مقابل الإيماء إليه وإلى من آمن معه بضميرهم في جملة: [أَخْرِجُوهُمْ]. وليس ثمة تناقض بين القولين والقصة واحدة، لأن الواو لا تناقض الفاء، ولكنها تعطف وتجمع[5]، وليكون ما بعدها عقب ما قبلها، أو متأخراً عنه، أو متقدماً عليه[6]، ولا يحدث هذا بالفاء التي ترتب الحدثين وتعقّب

(1) سورة الأعراف، الآيات: 80 - 82.
(2) سورة النحل، الآيات: 54 - 56.
(3) ينظر: التعبير القرآني، ص: 181 - 182.
(4) ينظر: القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته، ص: 193.
(5) ينظر: الكتاب: (4/ 216)؛ شرح المفصل: (8/ 90)؛ الجنى الداني، ص: 188.
(6) ينظر: الفرّاء - معاني القرآن: (3/ 211)؛ مغني اللبيب، ص: 463.

بينهما، مما هو في حقيقته أحد معاني الواو، ولهذا قال سيبويه: «وهي تضم الشيء إلى الشيء كما فعلت الواو، غير أنها تجعل ذلك متسقاً بعضه في إثر بعض»[1]، وقد اقتضى السياق في آية النمل معنى الترتيب والتعقيب، وأطلق ذلك في الأعراف لأنه لم يقض بذلك ولم يستدعه.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن قوله تعالى في آية النمل: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ يبدو وكأنه متسبب عن قول لوط: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ فهو يشبه أن يكون جواباً له، ومجيء قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ بعد قوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ المختوم بالجملة الفعلية، وهو مما يصلح فيه الفاء، وكأن قولهم كان مرتباً على هذه الجملة وقد ختم الجواب بمسرفين في آية الأعراف، وليس الاسم أصلاً فيما تجعل الفاء جواباً فيه[2].

ومن استبدال الواو بالفاء أيضاً قوله تعالى في سورة الأعراف[3]: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وقوله في سورة البقرة[4]: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وذلك قبل فعل الأكل في السياقين، جمعاً بين السكنى والأكل في الثانية بالواو[5]، وترتيباً لهما وتعقيباً بالفاء[6]، في الأولى. والواو أوسع من الفاء، لأن من جملة معانيها معنى الفاء[7] نفسها، وهي صالحة

(1) الكتاب: (4/ 217)؛ وينظر: المقتضب: (1/ 10).
(2) ينظر: درة التنزيل، ص: 162 - 163؛ أسرار التكرار في القرآن، ص: 86 - 87؛ ملاك التأويل: (1/ 553 - 554).
(3) سورة الأعراف، الآية: 19.
(4) سورة البقرة، الآية: 35.
(5) ينظر: الكتاب: (4/ 217)؛ المقتضب: (1/ 10)؛ مغني اللبيب، ص: 213 - 214.
(6) ينظر: الكتاب: (4/ 216)؛ شرح المفصل: (8/ 90)؛ الجنى الداني، ص: 188.
(7) ينظر: التفسير الكبير: (14/ 45)؛ مغني اللبيب، ص: 463.

لجميع الأزمان بما فيها زمن الأحداث التي ترتب وتعقّب، ودلالتها على السعة في الاختيار، ومناسبتها لمقام التكريم، لأن قصة آدم في سورة البقرة مبنية على تكريمه[1]، على خلاف قصته في الأعراف، لأنها ليست مبنية على هذا الأمر[2]، فقوله تعالى: ﴿اسْكُنْ﴾ في آية البقرة من «السكنى» التي هي الإقامة مع طول اللبث، ومن «المسكن» وهو اتخاذ الموضع سكناً في آية الأعراف، لأن الله أخرج إبليس من الجنة بقوله: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا﴾[3]. وخاطب آدم بقوله: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ أي: اتخذها لأنفسكما مسكناً، فإبليس يخرج منها ليتخذها آدم مسكناً، ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾، وبهذا شاكلت الفاء هذا المكان، لأن اتخاذ المسكن لا يستدعي زمناً ممتداً، ولا يمكن الجمع بين الاتخاذ والأكل فيه، بل يقع الأكل عقيب بدء السكن، وهذا الجمع في آية البقرة متحقق بين السكنى والأكل[4]، لأن الأمر ورد بعد أن كان آدم في الجنة للّبث والاستقرار والأكل لا يتعلق بهذا المراد، لذا ورد بلفظ الواو.

والأمر في آية الأعراف وارد قبل دخوله الجنة كما أريد منه وله، فكأنه تعالى قد قال: «إنْ دخلتموها أكلتم منها»[5]، فالدخول موصل إلى الأكل، والأكل متعلق وجوده بوجوده.

ويُستنتج مما سبق أن المجيء بالواو في آية البقرة في قوله: ﴿وَكُلَا﴾ للدلالة على السعة والاختيار، وهو المناسب لسياق الآية، ولمقام التكريم، لأننا لو قلنا

(1) سورة البقرة، الآيات: 30 - 38.
(2) سورة الأعراف، الآيات: 11 - 25.
(3) سورة الأعراف، الآية: 18.
(4) ينظر: درة التنزيل، ص: 10 - 11؛ أسرار التكرار في القرآن، ص: 25 - 26؛ البرهان في علوم القرآن: (1/ 128)؛ الإتقان: (3/ 391)؛ معترك الأقران: (1/ 87)؛ القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته، ص: 57؛ محمد السيد حسن مصطفى - الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية، الإسكندرية، 1981م، ط 1، ص: 337.
(5) التفسير الكبير: (3/ 4).

لشخص: أُدخلْ وكُلْ، كان له الحق في الأكل متى شاء، ولو قلنا: ادْخُلْ فَكُلْ، كان عليه أنْ يأكل عقب الدخول، فالواو أرحب زماناً من الفاء[6].

ومما يدل على أن آية البقرة واردة في مقام التكريم الإشارة إلى الرغد في سياقها وفي زمن غير محدد، مما لم يُذكر في آية الأعراف. وقد جمع بالواو في آية البقرة بين الزمن الممتد والعيش الرغيد، لدلالتها على أن ذلك سيقع في مكان وزمان رحبين مطلقين غير محددين، تكريماً لآدم وزوجه:

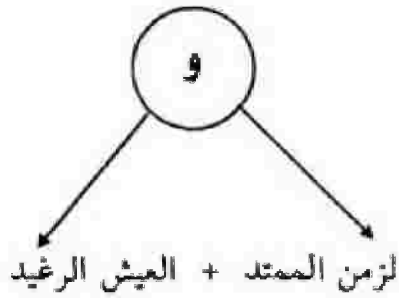

الـــــــواو = الرحب الزماني.

حيث شئتما = الرحب المكاني.

لذلك كررت لفظة «الجنة» في البنية التحتية التي عُبّر عنها بالضمير في البنية السطحية: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾، وجاءت ﴿رَغَدًا﴾ صفةً لموصوف محذوف، أي: أكلا رغداً[7]، دالّة على التوكيد، ومناسبة للتكريم، وقد قيّد التضاد الزماني المطلق بـ(من) البعضية في الأعراف: ﴿مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾، لأن الموقف يتطلب ذلك.

◄ النافية بالنافية:

- لا ← ما:

قال تعالى في سورة القصص[8]: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ

(1) ينظر: التعبير القرآني، ص: 257.
(2) إملاء ما مَنّ به الرحمن: (1/ 30).
(3) سورة القصص، الآية: 80.

خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾، وقال في سورة فصلت[1]: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾، فقال: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ و﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ لأن آية القصص موجهة لأولئك الذين تمنّوا أن يعطيهم الله من قوم موسى عليه الصلاة والسلام مثل ما أعطى قارون بقولهم: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[2] تقريعاً لهم بقوله تعالى: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ فضمير النصب في قوله: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ عائد للثواب بمعنى المثوبة، أو عائد إلى الجنة[3]، و«لا» النافية غير العاطفة وغير الجوابية إذا دخلت على الفعل المضارع كما في هذه الآية خلّصته للاستقبال، قال سيبويه: (وتكون «لا» نفياً لقوله «يفعلُ» ولم يقع الفعل، فتقول: لا يفعلُ)[4]، وثواب الله تعالى بدخول الجنة إنما يتلقّاها العبد يوم القيامة، وهو مستقبل، فلذلك دخلت (لا) النافية على الفعل المضارع [يُلَقَّاهَا]. بيد أن دخول (ما) النافية على الفعل نفسه في الآية الأخرى قد خلصته للحال[5] لأن هذه الآية واردة في سورة فصلت في سياق بيان الله ﷻ أن الحسنة والسيئة لا تستويان عنده، ولهذا أمر نبيه ﷺ أن يأخذ بأحسن الحسنتين في موقف التعارض بينهما ليدفع بها السيئة التي ترد عليه من أعدائه الكفار[6]، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[7]، مع أن دفع السيئة بالحسنة عام لكل المسلمين،

(1) سورة فصلت، الآيتان: 34 - 35.
(2) سورة القصص، الآية: 79.
(3) الكتاب: (4/ 222)؛ وينظر: شرح المفصل: (8/ 102)؛ الجنى الداني، ص: 303؛ مغني اللبيب: 322.
(4) ينظر: الكتاب: (4/ 221)؛ شرح المفصل: (8/ 112)؛ الجنى الداني، ص: 330؛ مغني اللبيب، ص: 399.
(5) ينظر: الكتاب: (4/ 221)، شرح المفصل: (8/ 112).
(6) ينظر: الكشاف: (3/ 453).
(7) سورة فصلت، الآية: 34.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ بمعنى: «وما يلقّى هذه الخليقة أو السجية التي هي مقابلة الإساءة بالاحسان إلّا أهل الصبر»[1]، وذلك في خطاب يتضمن مدح النبي ﷺ والثناء عليه، لأنه كان يدفع السيئة بالحسنة في كل حال مما تشاكله (ما) النافية وتناسبه.

- إنْ ← ما:

قال تعالى في سورة الأنعام[2]: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وقال في سورة الأحقاف[3]: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، فقال: ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ و﴿مَا هَٰذَآ﴾ في سياق النفي بـ (إنْ) و(ما) وما تبعه من قصر المبتدأ [هَٰذَا] في الجملتين الإسميتين[4] على خبره [أَسَاطِيرُ] بأداة القصر (إلّا)، ولا يخفى أن آية الأنعام النازلة في كفار مكة الذين لم ينتفعوا بما سمعوه من الرسول ﷺ ولم ينقادوا إلى الحق[5]، بإشارات سياقها إلى ما جعله الله على قلوبهم من الأكنة، وما أفرغه في آذانهم من الوقر، ما طبعهم عليه من قلّة الإيمان بآياته، فدرجة تكذيبهم في هذه الآية أشد مما وصفته آية الأحقاف الواردة في ولد ضال، كافر، عاقّ لوالديه اللذين يجتهدان في نصيحته «فلا يزيده دعاؤهما إيّاه إلى الحق ونصيحتهما له إلّا عتوّاً وتمرّداً على الله، وتمادياً في جهله»[6]. ولمّا كانت صفات المكذبين في آية الأنعام أشد وأكثر، فقد أكد

(1) الكشاف: 3/ 454.
(2) سورة الأنعام، الآية: 25.
(3) سورة الأحقاف، الآية: 17.
(4) ينظر في «إنْ» و «ما» النافيتين: المفردات في غريب القرآن، ص: 27، 79؛ شرح المفصل: (8/ 112 - 113)؛ همع الهوامع: (2/ 109 - 116)؛ مغني اللبيب، ص: 33، 399.
(5) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: (6/ 404).
(6) جامع البيان في تفسير القرآن: (26/ 13).

النفي فيها بـ(إنْ) لمزيد قوةٍ فيها على التأكيد بـ(ما)، فضلاً عن كثرة اقتران نفيها بـ(إلّا)[1]، زيادة في قوته، من ذلك قوله تعالى في سورة الأنعام[2]: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[3]. وقوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[4]، وقوله: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[5]، لأن المقام في سورة الأنعام مقام نفي مؤكد، وما نلحظه من عدوله تعالى من: ﴿يَقُولُونَ﴾ إلى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾، ومن «يكفرون بها» إلى: ﴿لَا يُؤْمِنُوا۟ بِهَآ﴾ يشير إلى الصفات التي تدل على أن كفر أولئك أكيد، وجحدهم واقع، بما لـ(إنْ) من فاعلية في التوكيد الشديد أكثر من (ما)، فضلاً عمّا غرزت به من قوة (إلّا) في التأكيد أيضاً:

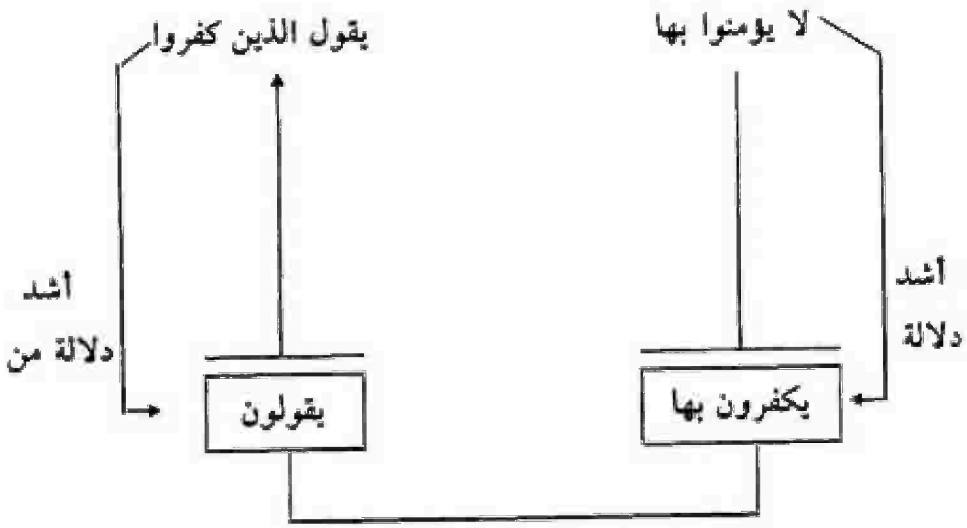

(1) ينظر: المفردات في غريب القرآن، ص: 27.
(2) سورة الأنعام، الآية: 7.
(3) سورة الأنعام، الآية: 25.
(4) سورة الأنعام، الآية: 26.
(5) سورة الأنعام، الآية: 29.

- لن ← لا:

قال تعالى في سورة البقرة[1]: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، وقال في سورة الجمعة[2]: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، فقال: (لن) و(لا) في مستهلهما المنفي بهما. والسبب في ذلك أن آية البقرة قد جاءت بعد قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[3]، كلاماً على الآخرة ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾، وردّاً على اليهود الذين ادّعوا أن الجنة لهم دون غيرهم مستقبلاً، لأن الآخرة مستقبلة[4]، وقد نفي بـ(لن) الحرف الخاص بنفي كل ما يستقبل[5]، على خلاف الكلام في آية الجمعة فهو عام، لا يختص بزمن دون زمن، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾[6]، فنفي بـ(لا)، الحرف الذي يفيد الإطلاق والعموم، بدليل دخوله على الحال[7]، نحو قولنا: أراكَ لا توافقُ، وجاءَ زيدٌ لا يتكلمُ، ودخوله على الماضي[8]، في مثل قوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾[9].

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن آية البقرة لمّا كانت مسبوقةً بشرط في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ﴾[10]،

(1) سورة البقرة، الآية: 95.
(2) سورة الجمعة، الآية: 7.
(3) سورة البقرة، الآية: 94.
(4) ينظر: ملاك التأويل: (1/ 227)؛ معترك الأقران: (3/ 458).
(5) ينظر: الكتاب: (4/ 220)؛ المقتضب: (2/ 6)؛ شرح الرضي على الكافية: (4/ 38)؛ الجنى الداني، ص: 284؛ مغني اللبيب، ص: 273.
(6) سورة الجمعة، الآية: 6.
(7) ينظر: المقتضب: (2/ 343)؛ الجنى الداني، ص: 304؛ مغني اللبيب، ص: 322.
(8) ينظر: شرح الرضي على الكافية: (4/ 12)؛ الجنى الداني، ص: 304؛ مغني اللبيب، ص: 320 - 321.
(9) سورة البلد، الآية: 11.
(10) سورة البقرة، الآية: 94.

فوقوع هذا الشرط هو غاية ما يطلبه المطيع، ولا مطلوب وراءه عنده، على ما ادعى اليهود لأنفسهم، وهو أنّ لهم الدار الآخرة خالصة من دون غيرهم، لذا «وجب أن يكون ما يبطل تمني الموت المؤدي إلى بطلان شرطهم أقوى ما يستعمل في بابه، وأبلغه في معنى ما ينتفي شرطهم به، وكان ذلك بلفظة (لن) التي هي للقطع والبتات»[1].

ف(لن) تفيد التوكيد، وقد صرّح الزمخشري في قوله: (و «لن» لتأكيد ما تعطيه «لا» من نفي المستقبل)[2]، ومثل هذا قول سيبويه في «لن» إنها «نفي لقوله: سيفعل»[3]، والسين في «سيفعل» إلى جانب إفادته الاستقبال مفيد التوكيد أيضاً[4]، فإذا كان الإثبات فيه معنى التوكيد، فنفيه يكون مؤكداً أيضاً. وليس كذلك الشرط الذي علّق به تمني الموت في سورة الجمعة، لأنه تعالى قال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾[5]، وليس زعمهم أنهم أولياء لله من دون الناس غايةً ما يطلبونه، لأنهم يطلبون بعد ذلك دار الثواب، وهي الجنة التي هي غاية ما يطلبه العبد المطيع. فلما كان الشرط في آية الجمعة قاصراً عن الشرط في آية البقرة، ولم تكن الدعوى غايةً للمطلوب «لم يحتج في نفيه وإبطاله إلى ما هو غاية في بابه»[6]، فنفاه تعالى بـ(لا) الخالية من معنى التأكيد، أضفْ إلى هذا مناسبة (لن)، و(لا) لموضعيهما في الآيتين مناسبةً صوتية لها علاقة بمعنى كل من الآيتين، فلما كان الزمن في آية الجمعة عاماً مطلقاً، غير مقيد بزمن معيّن، فقد نُفي بـ(لا) المطلقة الآخر بالألف، ونفي في آية

(1) درة التنزيل، ص: 24؛ وينظر: أسرار التكرار في القرآن، ص: 32.
(2) المفصل، ص: 143؛ وينظر: التفسير الكبير: (3/ 192)؛ شرح الرضي على الكافية: (4/ 38).
(3) الكتاب: (4/ 220).
(4) ينظر: الكشاف: (1/ 315)، (2/ 202)؛ البرهان في علوم القرآن: (2/ 421).
(5) سورة الجمعة، الآية: 6.
(6) درة التنزيل، ص: 25؛ وينظر: أسرار التكرار في القرآن، ص: 32 – 33.

البقرة بـ(لن) المقيدة الآخر بالنون الساكنة لأن الزمن في الآية المذكورة مقيدة بالاستقبال[1]، ولهذا قال ابن القيّم (ت 751 هـ): (وتأمّلْ حرف «لا» كيف تجدها لاماً بعدها ألف يمتدّ بها الصوت ما لم يقطعه ضيق النفس، فآذن امتداد لفظها بامتداد معناها، و«لن» بعكس ذلك، فتأمله فإنه معنى بديع، وانظر كيف جاء في أفصح الكلام كلام الله ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾ بحرف (لا) في الموضع الذي اقترن به حرف الشرط بالفعل فصار من صيغ العموم، فانسحب على جميع الأزمنة، وهو قوله ﷻ: ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾، وقال في سورة البقرة: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾ فقصّر من سعة النفي، وقرّب، لأن قبله: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾[2].

(1) ينظر: الزملكاني - البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، تحقيق: خديجة الحديثي وأحمد مطلوب، بغداد، 1974 م، ط 1: 193؛ البرهان في علوم القرآن: (2/ 420).
(2) ابن القيّم الجوزية - بدائع الفوائد، بيروت، د. ت: (1/ 95 - 96).